هيئة كتابة التاريخ

سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة

دور التاريخ في التوعية القومية

د . فاروق عمر فوزي

الطبعة الاولى - لسنة ١٩٨٨

اولا ـ التاريخ والتوعية

مقدمة :

في المدارس ينفرد موضوع التاريخ باهمية خاصة سواء كان في تقديمه على شكل دراسات مختارة منتقاة في المدارس أم في تدريسه بصورة علمية عميقة في الجامعات . ذلك لان التاريخ لايعرفنا بجذور ومسببات المشاكل التي تواجهنا ونحاول حلها فحسب بل انه عملية توجيه وتوعية وتعبئة متكاملة للجيل في المدارس والكليات .

فدراسة التاريخ العربي الاسلامي يفترض فيها ان تؤكد استمرار هذا التاريخ عبر العصور وفي كل اقطار الوطن العربي ووحدته وترابطه . وابراز اصالة التراث الحضاري العربي الاسلامي بقيمه العلمية والانسانية وبكل مظاهره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية وتأكيد صفته الانسانية التي افادت شعوبا اخرى خارج نطاق هذا الوطن .

واذا اردنا للتاريخ ان يكون اداة توجيه وتوعية وتعبئة فلا بد من ان ندرك بان ليس هناك تربية حيادية وليس هناك تربية مفصولة عن الهدف السياسي في عصرنا الحاضر . فالسياسة الواقعية لاية سلطة لابد من ان تهدف الى اعادة بناء الجيل على وفق القيم والمفاهيم التي تؤمن بها .

وبمعنى اخر فان هناك تكاملا تاما بين القيم التربوية والقيم السياسية . فنحن من خلال ابرازنا لمفاهيم الماضي

ومظاهره الايجابية نبرز دور الماضي في تكوين الشخصية القومية للفرد العربي . . . وحين نؤكد مواقف تاريخية معينة للافراد او الجماهير فهدفنا من ذلك تكوين انماط سلوكية ايجابية لدى نابتتنا .

ونحن اذا اردنا كل ذلك من التاريخ فلابد اذن من الاسلوب الانتقائي في المعرفة . اي ان المعرفة يجب ان تختار لتلائم الاهداف التي نرتضيها في ابراز المثل والقيم الرائدة التي تعبر عن تطلعات الامة ورؤيتها المستقبلية الحقيقية . وعلى هذا الاساس علينا ان نبرز الحركات والانتفاضات الرائدة ونبرز دور القادة والابطال فيها لا من اجل انصاف هذه الحركات وقادتها فحسب بل من اجل الاحياء من اجل الجيل المعاصر الذي يحتاج لنماذج وامثلة يحتذى بها .

التوعية والتاريخ :

التوعية هي توجيه منظم واع ومقصود لمجموعة من الافراد في مؤسسة ما كأن تكون مدرسة او معملا او دائرة . وهذا التوجيه الواعي يعد الفرد ويعبئه لحياة كاملة يدرك فيها واجباته فلا يتهرب منها ويعرف حقوقه فلا يتخلى عنها . تعده لظروف مجتمعه ومشاكله بحيث يستطيع مواجهتها بتفهم وشجاعة . ولما كانت مظاهر المجتمع مختلفة فالتوعية تبعا لذلك تكون متداخلة ومتنوعة فهناك توعية قومية وتوعية انسانية وتوعية عقلية وتوعية خلقية والخ .

والذي نريده في هذا المجال التوعية القومية ونعني بها تكوين حوافز وقيم لدى الناشئة من ابنائنا بحيث نحصل على

نخبة طليعية مثقفة قوية في شخصيتها وبما تحمله من قيم . اذ المفروض في هذه النخبة ان :

أ ـ تعي تاريخ امتها وتعتز بتراثها الحضاري الانساني وتعرف فضله وكيف تستفيد منه .

ب ـ تحيط بعمق بالواقع الراهن للوطن العربي ومجابهته للتحديات الاستعمارية والصهيونية .

ج ـ تشعر بمسؤولياتها التاريخية تجاه الاهداف الكبرى للثورة العربية وتعرف كيف تناضل من اجل تحقيقها .

د ـ تدرك الرابطة المصيرية بين كفاحها وكفاح الشعوب الاخرى من اجل التحرر والتقدم .

ولعل التاريخ يلعب دورا رئيساً في تحقيق الاهداف الآنفة الذكر . بل ان دراسة التاريخ هي اهم الطرق في عملية التحليل السياسي للحاضر الذي نعيش فيه . فنحن ندرس الماضي لنضع ايدينا على الخيوط التي تنسج منها الحاضر فنفهم قوامه وتركيبه . ثم ان الامر لايتوقف في دراسة التاريخ عند حد معرفة الحاضر ولكن يتعدّاه الى توضيح الاتجاه الذي يجب ان تسير فيه الامة نحو مستقبلها . فالحاضر كما هو معروف ، ليس ثابتا ولكنه متطور ومتغير وهو مفترق طرق لعدد كبير من المستقبلات . ومن الضروري ان تتبين الامة اي اتجاه تسير فيه !!

ان العملية التاريخية التي يكشفها علم التاريخ تبين هذا الاتجاه الذي يجب ان تسير فيه الامة ان هدفنا هو ان نعد المواطن لا ليعيش في حاضر دائم بل في حاضر متطور نحو

مستقبل يجب ان يكون خيرا من الحاضر . هذه هي الوظيفة القومية للتاريخ وهي وظيفة لايمكن ان يؤديها غير التاريخ من العلوم الانسانية الاخرى . فالمؤرخ اي مؤرخ ينتمي الى امة وعليه ان يكون مخلصا لامته مواليا لها مثل ولائه للحقيقة والانسانية . وعلى المؤرخ تقع مسؤولية تبصير مواطنيه بقضايا امته المصيرية وازماتها . وان يقف الى جانب امته منذرا ومبشرا ومشجعا ان التاريخ يخلق الشخصية الايجابية ذات الاثر الفعال في مجرى الحياة الوطنية والقومية والمقصود بالشخصية الايجابية هي الشخصية التي تقوم على الولاء للوطن والاخلاص لاهداف الامة والعلم بطرق تحقيق تلك الاهداف والعزيمة القومية التي تدفع الى الاسهام في هذا التحقيق . ان خلق هذه الشخصية الايجابية لايتم بالطرق التقليدية بل بدراسة موجهة مستنيرة لاتقف عند الحوادث والتواريخ بل تتعداها الى توضيح المغزى الحقيقي لكل حادثة في تاريخ العرب والانسانية .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فنحن نريد من جيلنا الصاعد ان يتذوق تراث العرب الحضاري ويعتز به والمعروف ان هذا التذوق والتقويم لايتفقان دون معايير ومقاييس ، والتاريخ هو سجل الخبرات البشرية وهو مصدر تلك المعايير . فتاريخ العرب الوسيط مثلا يبين لنا ان الوحدة عامل قوة سياسية واقتصادية . وان الحرية اساس في الجماعة وتطورها ، وان التكامل الاجتماعي كان يسعى اولا وقبل كل شيء الى عدالة التوزيع وهو مبدأ ينزع دون شك منزع

الاشتراكية . وبمثل هذه المعايير وغيرها يمكن قياس الحاضر والحكم عليه .

المؤرخون الرواد وتفسير التاريخ

ان تحقيق هذه الاهداف القومية والانسانية يتوقف الى حد كبير على التفسير التاريخي الذي نتبناه . فهل نمتلك نظرة في تفسير التاريخ ؟

لقد اهتم المؤرخون العرب الاوائل بالتاريخ الذي احتل عندهم مكانة بارزة والفوا في مختلف فروعه واطلقوا عليه لقب « العلم المستطيل » اي العلم الذي يستطيل ويتشعب في فروع المعرفة الاخرى كافة ويشملها . وقد اورد السخاوي (١) فوائد التاريخ فذكر ان فيه ما يصلح الانسان به امر دينه وسريرته وما يصلح به امر معاملاته ومعاشه الدنيوي وان ما يذكر فيه من اخبار وسياسات غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الامور بأسرها فيعزز عقله .

وقال شاعر :

من لم يَعِ التاريخ في سره
لم يدر حلو العيش من مره
ومن وعى اخبار ماقد مضى
اضاف اعمارا الى عمره

وقال عبد الواسع اليماني في علم التاريخ : (٢)

« ان علم التاريخ علم جليل المقدار شهدت بفضله

الآيات والاخبار واعتنى بنقله الاثبات والاخيار وانفقوا في ذلك نفائس الاعمار . يطلع به العاقل على مر من الاعصار فيزيده من الكياسة والاستبصار بما حدث للامم الماضية من الحوادث التي فيها عظة واعتبار » .

واكد ابن خلدون (٣) ان علم التاريخ نظر وتحقيق وتعليل الكائنات دقيق وخصص فصلا كاملا عدد فيه فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه .

ومن الطبيعي ان يختلف مؤرخو العصور الوسطى[٤] في تفاسيرهم للتاريخ فقد تبنى بعضهم التفسير الديني وتبنى اخرون التفسير الخلقي او الحضاري وحاول البعض ابراز دور الاشراف العرب في حين اراد اخرون اعطاء قانـون معين لنشوء المجتمع والسلطة . .

اما اذا استعرضنا الدراسات الحديثة في تاريخ العرب فنلاحظ بأن اغلبها دراسات قائمة على اساس الاسر الحاكمة او الاقاليم ولاتهتم بالحركات الاجتماعية والمظاهر الحضارية ولاتبرز العوامل التي تحدد الاهداف المشتركة للامة العربية وتهمل الروابط والصلات وما فيها من اتجاهات مشتركة . وهذه الدراسات ، دون شك ، تورث التجزئـة وتؤكدهـا ولاتعني بالتطور العام للامة ولاتحاول ان تبرز الفكرة القاتلة بان للعرب تاريخا واحدا منذ اقدم العصور حتى اليوم تلك الفكرة التي تدرس التاريخ العربي كوحدة واحدة في اتجـاه واحد يحقق المواطنة العربية الحقة .

ولعل بعض السبب في هذا النقص البارز يعود الى اعتمادنا على دراسات استشراقية حيث ترجمها مؤرخون عرب ونقلوها الى العربية وتبنوا تفسيراتها التي ينقصها الفهم الداخلي والشعور بروح التاريخ العربي[٥] . اننا لانريد ان نخضع تاريخنا الى فرضيات ووجهات نظر بعيدة عنه ولاتنطبق عليه بل الاجدر ان تكون فرضياتنا مشتقة من احداث تاريخنا ومن محاولتنا لفهمه .

نستنتج من ذلك كله انه لم تتبلور لدينا نظرة عربية او تفسير متكامل للتاريخ ، هذا مع اننا لاننكر وجود محاولات جادة على الطريق ولكنها مازالت في بداياتها وروادها قلائل لم يستطيعوا ان يكونوا مدرسة تاريخية عربية واضحة .

ماذا نريد من التاريخ ؟

اختلف المؤرخون والمربون والساسة في نظرتهم للتاريخ فمنهم من نظر اليه نظرة متفائلة ، ومنهم من رأى انه عديم الفائدة[٦] وانه ليس اكثر من قصة يقرأها كل من باستطاعته ان يقرأ بل ان بعضهم تطرف فادعى بان تعليمه مضر لانه يغذى الطلبة بروح الغرور .

ولم ير فيه نابليون بونابرت « اكثر من كونه خرافة متفق عليها » لان التاريخ وقف حجر عثرة في وجه مطامعه التوسعية لتكوين الامبراطورية . هذا في حين رأى بعضهم في التاريخ « خير ضمان للخلاص والتحرر » وانه صوت

يدوي عبر الزمن ينقل قوانين الحق والباطل واكثر بعض المربين ان التاريخ كنز حقيقي لخبرات الحياة يمكن الانتفاع عن طريقة من خبرات الجنس البشري . وللرصافي قوله المشهور الذي يردده المشككون .

وما كتب التاريخ في كل ماروت .

لقرائها الاحديث ملفق

نظرنا لامر الحاضرين فرابنا

فكيف بأمر الغابرين نصدق

هذه اراء متناقضة حول طبيعة التاريخ ان كل واحد له وجهة نظره المستمدة من تفسيره للتاريخ . والواقع ان التاريخ لم يكتب كتابة علمية موضوعية قبل القرن التاسع عشر الميلادي . فقبل هذا القرن كان التاريخ قسما من الادب وشارك في جميع خصائصه[٧] ، ولكي تكون القصة ممتازة اقتضى الا يكون علميا بل اصبح المهم في تأليفه ان يكون ممتعا وكانت المبالغة غالبة على كتب التاريخ واستغل التاريخ لاغراض مختلفة فملىء بالمعجزات والتنبؤات والتلفيقات ، الا ان تقدم العلوم الطبيعية والبحث العلمي اوجد موقفا انتقاديا جديدا لدراسة التاريخ واصبح للوثائق (الاصول) اهمية كبيرة فاذا ضاعت الاصول ضاع التاريخ معها فالحقيقة التاريخية وحدة لاتتجزأ وتحتاج الى جمع اكبر مايمكن جمعه من الاصول .

اننا اليوم يجب ان نعيد النظر فيما كتبته المدرسة القديمة

فالتاريخ ليس تاريخ اسر خلفاء بل هو تاريـخ الامة يعنى بدراسة جماهير الناس وحياتهم ويتناول القضايـا السياسيـة ولايهمل المظاهر الاجتماعية والاقتصادية كما اهملهـا مؤلفو التاريخ من قبل . ولذلك فان تعريفنا للتاريخ هو :

« تلك المعرفة المحققة المصنفة . وهو دراسة علمية وسجل كامل للماضي يبدأ بظهور الانسان ويتناوله وجـد واستقـر وعـاش . وهـو لايهتم بـالاشخـاص بـاعتبـارهم اشخاصا بل يهتم بكونهم اسهموا في الحركات والعمليات الكبرى في حياة الجماهير » .

التـاريـخ مركز الثقل في المنهج :

ولانكون مغالين اذا اعتبرنا موضوع التاريـخ مركـز الثقل في مناهجنا في الحقبة الحرجة التي نمر فيها . ولقد ايد العديد من المربين والمفكرين ذلك ولكنهم اكدوا ان تكون مواده مقتبسة مختارة متنوعـة بحيث تصبح مصـدرا لتفكير الطالب وتوجيهه الوجهة التي تنسجم مع قيمنـا واهدافنـا المصيرية .

والمعروف ان المدارس تقوم باعطاء الناشئة دراسات تاريخية او دروسا تاريخية لا علوما تاريخية حيث ان التعمق في علم التاريخ يكون في المراحل الجامعيـة ومابعـدها . ولمـا كانت الدروس التاريخية مقتطفات ومقتبسات فان فيها مجالا كبيرا للاختيار والانتقاء وفي اعتقادنا ان المناهج التاريخية في

مدارسنا يجب ان تُراعَى في انتقاء المواضيع التي تساعد الناشئين على :

(١) تنمية الاتجاه وتعميق نحو الولاء للوطن وترسيخ وحدته ضمن الاطار القومي وهذا يتطلب التركيز على كشف الاتجاهات المعوقة لنمو الوحدة كالمحركات العنصرية والطائفية واطماع الاستعمار والصهيونية .

(٢) تنمية الوعي بالقومية العربية وتعميق اتجاهاتهم بفكرة الوحدة العربية وذلك بتوجيه تدريس التاريخ القومي على نحو يعتز الطالب بابناء امته ويجعله يدرك بانه ينتمي الى امة كبيرة عريقة في امجادها ولها دورها المرموق في تاريخ العالم .

(٣) ادراك الطلبة لتراث الامة الحضاري ودورها في تشييد الحضارة الانسانية فالحضارة المعاصرة ليست نتاج شعب معين بل هي من صنع الزيادات الحضارية لشعوب مختلفة عبر العصور والشعب العربي له حصة بارزة في هذا المجال .

(٤) ادراك الطلبة اهمية التجربة الاشتراكية وتجسيد هذه التجربة في سلوكهم عن طريق الامثلة التاريخية وعن طريق تطبيق مفاهيم العمل الجماعي في النشاطات اللامنهجية .

(٥) ان قوميتنا انسانية . . . ولذلك فان مناهجنا يجب ان تنمي لدى الناشئة اتجاها نحو تقدير كرامة الانسان

كانسان واحترامها بغض النظر عن لونه وقوميته ودينه ولغته .
ويجب ان نرفض فكرة التفوق العنصري باعتبارها خرافة لاتشفع لها حقائق التاريخ الموضوعية . ان مايجب علينا ان نزرعه في نفوس طلبتنا الشعار الذي رفعه العرب في عصور ازدهارهم « لقد خدمني الانسان فكيف اخدمه » .

(٦) تنمية التفكير الناقد لدى الطلبة وذلك عن طريق تكوين النزعة العلمية لديهم وهذه النزعة هي اكثر من مجرد طريقة تاريخية مضمونها الا يحكم الطلبة على الامور جزافا او بشكل تعصبي والا يصدروا احكاما على مواضيع تفتقر الى الاثباتات حتى في مجال حياتهم الاجتماعية . وبهذا نربي فيهم روح الثقة دون الغرور والصلابة القائمة على الفكر دون الجمود وهنا يطالعنا قول الجاحظ :

« لاتذهب الى ماتريك العين اذهب الى مايريك العقل » .

ولكن هل تراعي مناهجنا التاريخية هذه المبادىء ؟ وهل تشير على وفق مخطط واضح يتبنى تفسيرا ينطوي على روح عربية ويؤكد فكرة الامة بمفهومها الحديث ويسير معها في تطورها مرحلة مرحلة ؟ هل ان كتب التاريخ توضح للطالب وجهة النظر العربية في سير التاريخ البشري والحضارة الانسانية .

ان اغلب كتبنا المدرسية في التاريخ ماتزال تفتقر الى التفسير الذاتي وهي لاتتعدى ان تكون عيالا على تفاسير

جاءتنا من مستشرقين واخذناها عن قصد او دون قصد فشوهت تاريخنا . لقد استطاع اسلافنا في عصور رقيهم الحضاري ان يردوا على الدعوات الشعوبية التي انتقصت من دور العرب التاريخي وحاولت طمس فضائلهم الحضارية ومساهمتهم في بناء التراث الانساني . اما نحن فقد اقتبسنا دون وعي تفاسير لاتختلف في مضامينها عن تفاسير الشعوبية في هجمتها على تاريخ العرب ورسالتهم الحضارية . وبعد هذا العرض النظري لدور التاريخ في اعادة تقويم تراثنا وتاريخنا اقول إن هذا الدور لايتم الا باعادة كتابة التاريخ للناشئة على اسس جديدة ومن وجهة نظر عربية قادرة على التحليل والتفسير تبرز دور العرب سياسيا وحضاريا وتؤكد انهم لم يكونوا في يوم ما في عزلة عن بعضهم البعض ولا عن العالم .

وسنورد فيما يأتي بعض الامثلة التاريخية التطبيقية التي يمكن الوقوف عندها مليا والاستفادة منها في تكوين المثل والقيم لدى الناشئة هي امثلة تحتاج الى وقفة واستفاضة حتى تعاد كتابة الكتب التاريخية المدرسية :

في التاريخ العربي قبل الاسلام :

ففي الحياة العربية قبل الاسلام العديد من المثل والقيم الايجابية ، ذلك لان العرب اقاموا دولا ذات كيانات سياسية وحضارية متقدمة في الجنوب من الجزيرة العربية وفي شمالها . واذ تركنا جانبا دول الجنوب المعروفة المعينية

والسبأية والحميرية نلاحظ دولة الانباط العربية في فلسطين وجنوبي شرقي سوريا تزدهر في اواخر القرن الثاني قبل الميلاد ووصلت عاصمتها البتراء درجة كبيرة من التحضر والازدهار ثم تبعتها دولة تدمر وهي دولة اعتمدت على التجارة وكانت السلطة فيها بيد « مجلس الشعب » .

ثم حاولت دولة كندة في الوسط محاولة مهمة في طريق توحيد القبائل العربية المتنافرة في دولة عربية واحدة تكون نواة لدولة عربية اكبر .

وظهرت دولتا المناذرة في اطراف العراق والغساسنة في جنوبي بلاد الشام . ولم تسلم هاتان الدولتان من التدخل الاجنبي الفارسي والبيزنطي مثلما وقعت الدول الجنوبية فريسة للغزو الفارسي الحبشي حيث اثار المشاعر العربية لدى زعمائها فقد رفض الحارث الكندي اوامر الملك الفارسي قباذ بأن « ينهض الى مكة ويهدم البيت وينحر عبد مناف ويزيل رئاسة قصي » نعم الحارث رفض ذلك « وداخلته حمية للعرب فاعرضن عنهم »[٨] . . .

ما اعمق هذا المعنى في كلام الحارث . . . انه لايريد ان يحتل الحجارة بتحريض من الفرس حمية للعرب وحرصا عليهم . وهذا يذكرنا بموقف اذينة ملك تدمر الذي انتصر عدة انتصارات على الفرس ولقبه الروم « ملك الشرق » ومع ذلك لم يذعن للروم فاغتالوه بمؤامرة دنيئة .

حلف الفضول : وكم من القيم والمثل العليا ان نستنتجها من فكرة حلف الفضول الذي عقد بين قبائل

الحجاز قبيل الاسلام فقد كان الاتفاق بأن :

« لايروا جائعا الا اطعموه ولايروا مظلوما الا نصروه على ظالمه »

الاسواق : وهل انتبه المنهج الى اهمية اجتماعات القبائل العربية المتباعدة في الاسواق كسوق عكاظ وذي المجاز وفي الاشهر الحرم ومراسيم الحج حيث كانت تنمو الخصائص المشتركة والصفات الواحدة للجماعة العربية[٩] .

معنى من معركة ذي قار :

وهل يقف المنهج ليتدبر قليلا مغزى معركة ذي قار حيث استطاعت القبائل العربية غرب العراق ان تهزم جيشا منظما هو الجيش الساساني وكان قائد العرب هاني الشيباني قد شحذ همة المقاتلين قائلا :

ياقوم ان الحذر لايدفع القدر وان الصبر من اسباب الظفر المنية ولا الدنية واستقبال الموت خير من استدباره .

وكان النصر عظيما شجع العرب على تحرير العراق وطرد الفرس في معركة القادسية فيما بعد .

حروب تحرير وليست فتوحات :

ولم تكن العمليات العسكرية التي قام بها العرب في العراق والشام ومصر فتوحات بل هي حروب تحرير هدفها تحرير الارض العربية المغتصبة في اطراف الجزيرة العربية من

الفرس والروم . ولعل اهم دليل على ذلك اندفاع اهل اليمن في الجيش الى الشام لانها ارض اسلافهم[10] اي انها الارض التي استقرت فيها قبائل عربية يمانية حتى قبل تحرير الدولة العربية الاسلامية لها وانتزاعها من ايدي الروم ! وهذه الغاية اي التحرير هي في حقيقتها تخص المصلحة العامة لامصلحة فرد معين وهي كذلك غاية بعيدة المدى لاتقف عند حد معين ولعل مايدلل على التفاني وانكار الذات قول الرسول الذي جاء من القادسية ليخبر الخليفة عمر بن الخطاب عن الانتصار الكبير الذي حققه الجيش العربي في المعركة حيث قال :

« واستشهد فلان وفلان . . . الخ وآخرون لايعلمهم الا الله »

ما ابلغ هذا الكلام الذي يظهر لنا دور الجماعات في تكوين التاريخ . هؤلاء الاعراب المغمورون المخلصون الذين صنعوا لنا المجد في القادسية واليرموك ونهاوند لانعرف عنهم حتى اسماءهم فهل هناك تفان وانكار للذات بعد هذا التفاني !!

فكرة الجهاد : ثم تأتي فكرة الجهاد وهي تعني في الفكر الاسلامي بذل الجهد في مدافعة الشر واستجلاب الخير وهذه دون شك فكرة انسانية . فدعوة العرب مادة الاسلام الى العقيدة الجديدة في المناطق الجديدة اتخذت مبدأ اليسر والتسامح والسلم وسيلة لها . ولم يجبر العرب احدا

على الاسلام بل كان الفرد من سكان البلاد المفتوحة يستطيع البقاء على دينه ويدفع الضريبة التي كان يدفعها سابقا .

عملية دمج حضارية : ثم ان العرب عن طريق حروب التحرير والفتح حققوا اكبر عملية دمج حضارية في التاريخ ادت الى التقاء شعوب مختلفة ذات قيم وثقافات مختلفة . كما ان اختلاط العرب مع سكان البلاد المفتوحة وتزاوجهم من قبائل اخرى ومن سكان البلاد المفتوحة اوجد اسسا جديدة لاتقوم على عصبية الدم او العنصر فنشأ جيل جديد لاتتحكم فيه العصبيات الضيقة .

الاسلام منعطف جديد :

فالاسلام اذن كان منعطفا جديدا في حياة العرب ، بعث فيهم روحا جديدة فكانوا مادته ووسيلته في نشر مبادئه في العدالة والحرية . فنشأ صراع بين القديم الذي تمثله الارستقراطية العربية القرشية والجديد الذي تمثله القوى الثورية العربية بقيادة الرسول (ص) . انتصر فيه الاسلام وبلغ ذروة الانتصار في عهد عمر بن الخطاب الذي يعتبر واضع الاسس التنظيمية للدولة الجديدة التي وحدت العرب في الجزيرة سياسيا وعقائديا في دولة واحدة وتحت قيادة واحدة .

اقول قولي هذا وانا ادرك ان هناك كتبا الفت تحت عنوان « تاريخ العرب والاسلام » وهي لاتخصص لهذا

الاسلام اكثر من صفحة واحدة !! ان الاسلام فضلا عن كونه ديانة سماوية روحية فهو حركة اصلاحية بما جاء به من قيم جديدة كما انه صفحة براقة من تراث العرب في الفكر والنظم . ان تاريخ العرب الاسلامي تاريخ مشرق وحقبة تميزنا فيها بالقوة والابداع والاصالة انه تاريخ نعتز به ونستخلص منه العبر والقيم التي تفيدنا في حاضرنا .

من معاني الهجرة النبوية : ان هجرة النبي محمد (ص) من مكة الى المدينة فتحت صفحة جديدة في تاريخ العرب ، وهي منعطف حاسم في الدعوة الاسلامية التي انتقلت من اطارها الديني البحت الى اطار السياسة والحكم والتشريع الاقتصادي والاجتماعي .

وللهجرة معان عديدة لعل ابرزها المعنى الخلقي والنضالي حيث تظهر الثبات على العقيدة والصمود في الدفاع عن المبدأ . لقد هاجر المسلمون الاوائل تاركين مدينتهم واموالهم الى مستقبل كان مجهولا لديهم . ان هذه الفئة المهاجرة التي قبلت التحدي كانت ذات عقيدة تتجاوز الخوف من الموت وتتعدى الرهبة من التعذيب ثم هناك المعنى القومي والسياسي للهجرة حيث استطاع الرسول توحيد قبائل الاوس والخزرج في كيان سياسي واحد واصدر الصحيفة التي اعتبرت المسلمين امة متكافلة واحدة والرسول هو الحكم في الخصومات فابطل عادة الثأر التي بموجبها يتحتم على العربي ان يأخذ حقه بنفسه !!

واذا جاز لنا اطلاق اصطلاح « المعنى القومي » على هذا الاجراء الذي وحد القبائل العربية فان علينا ان نستدرك ونقول بان جذور هذا الشعور العربي بضرورة الوحدة ونبذ التشتت بدأ قبل الاسلام ولعل مايشير الى ذلك :

محاولات قريش نفسها من اجل توحيد القبائل العربية فقد كانت الارستقراطية القرشية صاحبة مصلحة التوحيد بشرط ان يكون هذا التوحيد خلف مكة وبقيادة قريش وبشرط الا يمس هذا التوحيد بأسس النظام الاقتصادي والاجتماعي آنذاك ولكن روح العصر ماكانت لترضي ان يتم التوحيد في ظل نظام مستغل متردّ .

ثم تعاهد الاوس والخزرج على جعل عبدالله بن ابي زعيما لهم

ثم اتحاد تميم وقيس واغارتهم على الساسانيين .

اتفاق بكر على تأسيس دولة كندة التي تعتبر نموذجا لكيان عربي موحد .

ثم حلف الفضول كان دعوة لاتحاد كلمة العرب على مبدأ .

ثم كان نظام المواخاة رمزا لوحدة قبائل عربية مختلفة تحت راية الاسلام وبداية طاعة العرب لسلطة مركزية وبداية شعورهم برابطة جديدة فوق القبيلة تربطهم في ظل الاسلام .

هل كان للاسلام ابعاد قومية ؟

نعم كان للاسلام ابعاد عربية . . . فمنذ بداية الدعوة ناصب الرسول (ص) العداء للشرك والوثنية والاستغلال واراد ان يخضع قريشا ولكنه لم يهدف الى تدمير مكة او اجتثاث سكانها واكد القرآن ان الاسلام دين ابراهيم الحنيف الذي بنى البيت الحرام وجعل البيت الحرام قبلة للمسلمين يتجهون اليها في صلواتهم الخمس . كل ذلك كان له اثره على العرب اذ جعلهم يشعرون بان الرسول كالعرب يولي مكة احتراما كبيرا وان خصومه هم مشركو قريش لاقريش كلها !! وبعد فتح مكة عامل الرسول (ص) المكيين باللين وكسبهم للدعوة الجديدة .

ان النتائج الايجابية لكل اعمال الرسول (ص) يمكن تلخيصها بثمرة مهمة هي توحيد العرب تحت سلطة مركزية واحدة وربطهم برابطة جديدة ما فوق القبيليّة هي رابطة « العروبة » وعقيدتها الاسلام . وبعد ان استطاع ابو بكر الصديق القضاء على حركات المرتدين ثبت نواة التوحيد الروحي والثقافي فاصبح الاسلام عقيدة كل سكان الجزيرة تقريبا وبذلك حصل تطابق بين العروبة والاسلام اي ان العرب اغلبهم مسلمون وان الاسلام شمل غالبية العرب هذا مع ادراكنا لعالمية الدعوة الاسلامية من حيث المبدأ . لقد خرجنا من تجربة صدر الاسلام بوحدة وروحية ووحدة سياسية . . . فتعدد الآلهة عند العرب كان يشير الى تعدد

الهـويات وتشتتهـا والى انعدام الـوحدة الـوجدانيـة فجـاء الاسلام بوحدة الهوية للمجتمع العربي واصبح الولاء للفكر الجديد الواحد للجماعة العربية هو المقياس او المعيار الذي يقاس به الاخلاص للدولة العربية الاسلامية .

ومن هذا المنطلق اعتبـرنا فتـوحات العـراق والشام ومصر حروب تحرير لاراضي عربية مغتصبة ولسكان عرب تحت النفوذ الاجنبي الساساني والبيزنطي .

تطور معنى العروبة :

ولكن معنى العروبة لم يبقَ ضيقا فقد تطور من معنى لقبليّة الى معنى اوسع واشمل اساسه اللغة والثقافة والولاء للدولة الجديدة . فقد قال الرسول (ص) :

« ليست العربية بـاحدكم من أب ولا ام وانمـا هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي » .

واكد هذه النظرة عمر بن الخطاب حين ربط الموالي بقبائلهم العربية وساواهم في الحقوق والواجبات .

من أعتقتم من الموالي فاسلموا فالحقوهم بمواليهم لهم مـالهم وعليهم ما عليهم واستمـرت هذه النـظرة واكدهـا مفكرو عصر الازدهار الحضاري في العهـد العباسي مثـل الجاحظ وابن قتيبة وابي حيـان التوحيـدي ثم ابن خلدون وكلهم يرفضون فكرة العنصر كمعيار .

لتصنيف المجتمـع ويعتبرون الثقـافة واللغـة والبيئة

عوامل رئيسة في قياس الشخص وميوله وتشير رواية تاريخية الى هذا المعنى الجديد للعروبة فتقول ان المنصور سأل احد موالي الامويين عن نسبة من العرب فأجاب ذلك المولى : « اذا كانت العربية لسانا فقد نطقنا بها وان كان دينا فقد دخلنا فيه !! »(١٢) وبهذا المعنى انبرى الجاحظ وابن قتيبة يدحضون آراء الشعوبية التي حاولت تشويه دور العرب التاريخي وحضارتهم الانسانية . . . ذلك الدفاع الذي اظهر قوة الارادة والفكر العربي في مجابهة التيارات الاجنبية . لقد كان فكرنا القومي انسانيا لاعنصريا منذ البداية ومن الجذور !!

عملية التعريب :

ثم يأتي العهد الاموي وهو عهد يزخر بالامجاد العربية . لقد كان التعريب عملا ضخما وجبارا شمل المصطلحات الادارية والمالية اولا واتخذ اللغة العربية لغة للدواوين ولم ينحصر في المركز بل تعداه الى الاقاليم .

ورافق تعريب الدواوين تعريب السكة وهي دون شك خطوة مهمة في تأكيد الكيان العربي للدولة ودعم استقلالها الاقتصادي . فقد اصبح هناك وزن خاص جديد للدينار العربي في حين كان المجتمع يتعامل قبل ذلك بالدينار البيزنطي والدرهم الساساني .

فتحررت العملة العربية من الارتباط بالخارج واصبحت ذات شأن دولي في التعامل التجاري والمالي .

نظم جديدة واصطلاحات :

ولاننسى النظم الجديدة التي ابتدعها الخليفة هشام بن عبدالملك والاصطلاحات المالية التي اكدها عمر بن عبدالعزيز وبعض الولاة الامويين والتي حاولت انتشال الخلافة الاموية من الازمة المالية التي خنقتها .

"الثورة العباسية ثورة عربية !

وبالرغم من هذا وذلك كانت قبائل العرب المستوطنة في العراق وخراسان متذمرة من سياسة الامويين المالية والعسكرية وادى ذلك الى الثورة العباسية التي بدأت بدعوة سرية نظمها محمد بن علي العباسي وجذب اليها القبائل العربية المتذمرة في خراسان[١٥] .

ان هذه القبائل هي التي استطاعت في نهاية المطاف ان تقوض الخلافة الاموية وتعلن قيام الخلافة العباسية . فهل انتبه مؤلفو كتبنا المدرسية الى هذا التقويم الجديد لطبيعة الدعوة العباسية الذي يؤكد دور العرب في الثورةان الامويين في اواخر ايامهم فرقوا بين العرب فكان هناك عرب ذوو امتيازات وعرب محرومون منها . وقد استغلت الدعوة العباسية ذلك وادركت بان القبائل العربية هي القوة الضاربة التي يجب ان تعتمد عليها اذا ارادت للسلطة الاموية ان تنهار . وقد تم ذلك فعلا على يد القبائل العربية الخراسانية . لقد آن لنا ان نستبدل التفسير القديم الذي

يقول إنّ الثورة العباسية قامت على اكتاف الفرس وان دولة العباسيين تأثرت بالنفوذ الفارسي في عناصرها وصبغتها ونظمها فهو تفسير لايستند الى اساس تاريخي .

وحركة الترجمة في العصر العباسي :

الا تعطينا حركة الترجمة والتعريب في العصر العباسي برهانا ساطعا على غزارة اللغة العربية وعمقها واتساعها وقابليتها على استيعاب المفردات والمصطلحات الجديدة . فهذا حنين بن اسحق العبادي يترجم الكتب من اليونانية والسريانية الى العربية ويستنبط الاصطلاحات العربية دون ان يعيقه عائق لغوي . وما كان ذلك ليتم لولا ان لغتنا المعطاء كانت ذات طواعية على التفجر الداخلي الفاظا وتركيب فتتسع لكل هذا الجديد اتساعا يسيرا هينا وينطلق التعبير بها عن آراء وافكار جديدة وعميقة تعبيرا فيه فصاحة وبساطة وتعقيد حسب ماتقتضيه الامور والاحوال .

الفتوة :

وهل حاول المنهج ان يبرز محاولات الخلفاء المتأخرين لاستعادة هيبة الخلافة وسلطتها من نفوذ الاجانب من بويهيين وسلاجقة ؟ ولعل نظام الفتوة كان من ابرز المحاولات في هذا المجال وذلك في عهد الناصر الذي كان يمر بظروف داخلية وخارجية عصيبة الا انه استطاع من خلال اجراءاته السياسية المختلفة ان يخرج بالدولة العباسية من

ازمتها ويعيد قوتها وللسلطة المركزية هيبتها .

لقد استطاع نظام الفتوة ان يوحد الصف الوطني بتوحيده المنظمات المختلفة بمنظمة واحدة تحت زعامة الخليفة فتخلص من النفوذ السلجوقي واصبح بامكانه ان يساعد صلاح الدين الايوبي ضد الصليبيين بصورة غير مباشرة حيث امر الحكام المنخرطين في نظام الفتوة بان يسهموا في الحرب ضد الغزاة الاجانب .

ان بامكاننا الاستفادة من خبرات وتجارب الفتوة الناصرية في عملية بناء حركة الفتوة والطلائع اليوم وخاصة اننا نواجه اخطارا شبيهة بما واجهه الخليفة الناصر رغم اختلاف المسميات .

العرب والغزاة :

وحروب العرب والمسلمين ضد الغزاة الطامعين من صليبيين ومغول ، هل يستخلص منها منهجنا العبر بطريقة القياس التاريخي ؟ ان صمودنا ضد الغزاة الصليبيين ودحرنا لهم بعد نضال طويل لايزودنا بالثقة بانفسنا فحسب بل يؤكد ان الوحدة هي طريق النصر والتحرير .

فبالوحدة انتصرنا على الصليبيين (وهم مستعمرون اوربيون جاءوا متبرقعين بالدين) . وبالوحدة يمكن ان ننتصر على الصهيونيين (وهم مستعمرون اوربيون جاءوا متبرقعين بالصهيونية) .

وانتصارنا في عين جالوت سنة ١٢٦٠ م على المغول

يؤكد مرة ثانية ان الوحدة طريقة النصر وهي قوة في السلم والحرب على السواء .

في مجال النظم والافكار :

وهل يبرز منهجنا في مجال النظم والافكار دور العرب من علماء ومفكرين . ان جهود العرب لم تقف عند الاقتباس بل تخطت ذلك الى الشرح والتعليق والنقد والتصحيح ثم التأليف والابداع في الحقوق العلمية والانسانية .

ولعل نظرة الى علماء العصر واصلهم يظهر لنا خطأ الرأي القائل بان اغلب علماء المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى كانوا من غير العرب ، ذلك لان الافراد كانوا ينتسبون احيانا الى المدينة التي ولدوا فيها او الاقليم الذي فيه وليس معنى ذلك ان المروزي او الاصفهاني او الخراساني كانوا عجما بالضرورة لانهم يحملون القابا اعجمية . وقد اشرنا فيما سبق الى ان المفكرين في العصر الوسيط وضعوا حدا للعنصرية التي اشاعتها الحركة الشعوبية فاعتبروا هوية الفرد لاتقاس بجنسه بل بثقافته وبيئته الفكرية والحضارية وباللغة التي يكتب بها وبالمشاعر والعواطف التي تجيش في عقله وقلبه . ولعل خير مثال على ذلك الجاحظ الذي لم يكن في الاغلب مريبا في اصله ولكنه كان عربيا في ثقافته ولغته وفكره ومشاعره وكان من اكبر المتصدين للشعوبية المدافعين عن العروبة وفضائلها .

وهؤلاء العلماء العرب الافذاذ . . . . على المنهج ان

يتوقف عندهم فيؤكد جوانب مهمة من منجزاتهم واضافاتهم العلمية .

مثال حي للعالم العربي .

ان ابن الهيثم البصري[١٦] يعتبر مثالا حيا للعالم العربي يجمع بين الامانة العلمية والتواضع والعمل الدؤوب . وان دراسته تغرس في نفوس الناشئة عزما وتصميما على احياء التراث العربي ، والاقتداء به في العمل المنتج في الوقت الحاضر . ان المطلع على كتب الحسن بن الهيثم يلمس دقة في التفكير وعمقا في البحث واستقلالا في الحكم . وقد نقلت مؤلفاته في البصريات الى اللغات الاوربية في عصر النهضة وكانت اساس تقدم هذا العلم .

الغاية هي السعادة الحقيقية :

والفارابي في مدينته الفاضلة يرى ان واجب رئيس الدولة هو ان يسعد شعب المدينة الفاضلة اي تحقيق اعلى مستوى ممكن من الرخاء للشعب . فما اروع هذا التعبير وما احرانا ان نستفيد من هذا التراث !! يقول الفارابي :

« الملك في الحقيقة هو الذي غرضه ومقصوده ان يفيد نفسه وسائر اهل المدينة السعادة الحقيقية وهذه هي الغاية والفرض .[١٧] .

عدالة التوزيع :

ومفكر اخر هو ابن حزم يقول في كتابه المحلى :

« . . . وفرض على الاغنياء من اهل كل بلد ان يقدموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك ، ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا في سائر اموال المسلمين بهم فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه . . . ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والشمس . . . وعيون المارة .»[18] فكم هي الضمانات الاجتماعية والاقتصادية التي يقررها كلام المفكر العربي الاسلامي ابن حزم ؟

هذا مع العلم ان ابن حزم لايقرر نظرية جديدة يستقيها من دراسة ذكية للتشريع الاسلامي ومن السوابق التطبيقية فقد اسقط عمر بن الخطاب الجزية عن الذمّي الشيخ وأمر ان يعال من بيت المال . وقرر خالد بن الوليد القاعدة نفسها حين قال :

وجعلت لهم ايما شيخ ضعف عن العمل ام اصابته آفة من الآفات او كان غنيا فافتقر وصار اهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله .[19] .

لايجوز اجارة الارض :

ويقرر ابن حزم كذلك انه « لاتجوز اجارة الاراضي اصلا . . . ولايجوز في الارض الا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها » وهذا مبدأ اشتراكي فعلا فخير الارض لمن يزرعها ونفعها للعاملين في حين أنّ اجارة الارض تفضي

الى ان يأخذ الملك الاجرة سواء انتجت الارض ام لم تنتج[٢٠] .

ورفض اجارة الارا[illegible] رفض للاستغلال لانه يحتم على الملك اما ان يزرعها بنفسه او ان يزرعها غيره فان انتجت كثيرا فلهما وان انتجت قليلا فتصيبهما وان لم تنتج فالخسارة عليهما معا وهذه قسمة عادلة .

الزامية التعليم :

وفي كتاب (الاحكام) نص صريح يقرر مسؤولية الدولة في جعل التعليم اجباريا وتوفير اسبابه ووسائله وشموله لكلا الجنسين وللاحرار والارقاء يقول النص :

« فهذا كله (العلم بالاحكام) لايسع جهله احدا من الناس ذكورهم واناثهم ، احرارهم وعبيدهم وفرض عليهم ان يأخذوا في تعلم ذلك حين يبلغون الحلم وهم مسلمون او من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم .

ويجبر الامام ازواج النساء وسادات الاراء على تعليمهم ماذكرنا اما بانفسهم واما بالاباحة لهم لقاء من يعلمهم ، وفرض على الامام ان يأخذ الناس بذلك ، وان يرتب اقواما لتعليم الجهال »[٢١] .

المرأة والعمل :

واعتبر مفكرو الاسلام[٢٢] المرأة نصف المجتمع وهو نصف فعال غير مشلول كما يحلو لبعض المستشرقين تصويره . يقول الطبري :

« يجوز ان تكون المرأة حاكما على الاطلاق في كل شيء . . . »

ويقولُ ابن حزم :

« وجائز ان تلي المرأة الحكم . وهو قول ابن حنيفة ، وقد روى عن عمر انه ولي الشفاء ، امرأة من قومه ، السوق . . . وقد اجاز المالكية ان تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص من منعها ان تلي بعض الامور » .

فصل القضاء واستقلاله :

وشهد العصر العباسي منعطفا جديدا في اقرار العدالة عن طريق ربط القضاة بالخليفة وهو اعلى سلطة في الدولة وذلك بان اصبح الخليفة يؤكد ان يكون تعيين القاضي من قبله ، كما حددت صلاحيات القضاء واختصاصاته واعطى جانب منها هو الجانب الجنائي الى الشرطة وصاحب الشرطة الذي زادت اهميته في هذا العصر .

واكدت الخلافة العباسية ديوان المظالم حتى ان الخليفة نفسه كان يجلس للمظالم ليستمع الى شكاوى الناس على الناس من ادنى درجاتهم الى اقرب المقربين للخليفة بل واحيانا على الخليفة نفسه . ان مبدأ وصول شكاوى جماهير الناس الى اعلى سلطة في الدولة دون حاجز او مانع يعترضها مبدأ سليم يجعل الحكام دوما وابدا على صلة باحوال الناس ومشاكلهم ويجعل اصحاب النفوذ على حذر من تصرفاتهم

وسياساتهم . ان تأكيد اهمية القاضي في العصر العباسي وبلورة اختصاصاته وتطوير ديوان المظالم كانت خطوات مهمة في سبيل تحقيق العدالة في المجتمع .



ان ماأوردناه من امثلة ونماذج تاريخية يعتبر قليلا من كثير مما يمكن ان يتضمنه كتاب التاريخ المدرسي . . . فهذه النماذج تعطينا امثلة تقوم سلوك ناشئتنا وتعدهم لاهداف مجتمعنا العربي الاشتراكي .

ان المطلوب منا في هذه المرحلة معالجة اكثر جذرية لمواضيع التاريخ العربي الاسلامي وتقويم جديد لمظاهره المختلفة بتبني تفسيرا ينطلق من وجهة نظر عربية في فهم التاريخ وتفسيره . اننا لانريد لمجتمعنا ان يتنازل عن ارثه الحضاري وقيمه المميزة ويستبد لها بقيم غريبة عنه وهذا لايتأتى الا بابراز القيم الايجابية في تاريخنا وتراثنا وتدريسها لطلبتنا في مراحلهم المختلفة .

ان هذه النظرة العربية في تفسير التاريخ يجب الا تقف عند تاريخنا العربي الاسلامي بل علينا ان نمتلك نظرتنا المميزة للتاريخ العالمي كذلك . فنحن حيث نكتب التاريخ الاوربي علينا ان نبرز فيه المراحل السياسية والظواهر الحضارية التي تهمنا بوصفنا عربا . ان كتب التاريخ الاوربي المدرسية تدرس تاريخ انكلترا كما يراه او يريده الانكليز وتاريخ فرنسا كما يراه الفرنسيون وتاريخ المانيا كما يراه الالمان . ان العرب

لاتهمهم التفاصيل حول حركة الاصلاح الديني الاوربية والانشقاقات في الكنيسة ولاتهمهم التفاصيل حول النظام الحزبي في انكلترا او النزاع بين الملكيين والجمهوريين في فرنسا . . . بل ربما تهمنا الحركات القومية . الحركات الوحدوية واساليب نجاحها . الحركات الاستعمارية اسبابها ونتائجها ، النهضة الاوربية وفضل العرب فيها ثم تطوراتها . كل ذلك نطرحه من خلال تفسير عربي نتبناه لامن خلال تفاسير اوربية يريدها مؤرخون اجانب ربما جانبوا الحقيقة والواقع في طرحهم لهذه المظاهر السياسية والحضارية الاوربية !!

ثانيا ـ الشعوبية وتشويه التاريخ :

ان ماطرحته الشعوبية من افكار ومادسته من روايات موضوعة على التاريخ العربي ـ الاسلامي ليس الا نموذجا للدور الهدام الذي لعبته هذه الحركة الفارسية في تاريخ الامة العربية الاسلامية . بل ان هذه الحركة اعتبرت :

« اخطر داء افسد التاريخ الاسلامي وعصف بالحياة الفكرية في عصر التدوين . فان الشعوبية وجهوا جهودهم الى تشويه اثار العرب وتأريخهم حتى دينهم ونسبوا الى دول الفرس القديمة خاصة مالايقره التاريخ من مدنية واثار . . »(٢٣) .

ولم تسلم حقبة من حقب التاريخ العربي الاسلامي من تشويه الشعوبية . ولم تنج المثل والقيم العربية الاسلامية

من الدس الشعوبي .

ادعت الشعوبية ان ليس للعرب تاريخ قبل الاسلام حيث كانوا بدوا غير متحضرين . ويتلخص موقفها المعادي بقولها :[٢٤]

« للامم كلها من الاعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها واحكام تدين بها وفلسفة وبدائع من الادوات والصناعات ، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولا كان لهم قط نتيجة من صناعة ولا اثر في فلسفة » !!

فقد انكرت الشعوبية ان يكون للعرب قبل الاسلام كيان سياسي او تقدم مادي او ثقافي متجاهلة دول العرب القديمة من اليمن والعراق واطراف الشام والحجاز وحضاراتها المزدهرة . . . والتي كانت مصدر اشعاع على الاقوام المجاورة ومنها الفرس .

وسخرت الشعوبية من عادات العرب ووصفتهم بالفقر المدقع واكل الضب . . . وحين لاحظ الشعوبيون اعتزاز العرب بادبهم من شعر ونثر وما فيه من بلاغة وبيان انتحلت الشعر والنثر الركيك ونسبته الى العرب . . . وحين ادرك الشعوبيون اهتمام العرب بأنسابهم زعمت انها انساب اسطورية وشككت في حقيقتها .[٢٥] .

اما عن تاريخ صدر الاسلام فد تجرأت الروايات الشعوبية بالتشكيك والدس على مواقف الرسول (ص) المبدئية من قريش ونسبت اليه تمجيد بعض اصنامها . وادخلت العديد من الاساطير والاسرائيليات في تاريخ هذه

الحقبة المبكرة من الاسلام وهي بذلك انما تريد ان تصل الى الطعن بالرسالة السماوية .

واذا كانت الرواية الشعوبية لم تتورع بالطعن بمواقف الرسول (ص) فكيف بالخلفاء من بعده ؟ . لقد كان ابو بكر الصديق ، في نظرهم ، مقلدا وضعيفا اما عمر بن الخطاب فمتسرع يخاف البارزين من القادة المسلمين ويعزلهم قبل استفحال امرهم . احرق مكتبة الاسكندرية !! مع ان التحقيق يؤكد حرقها من زمن بعيد قبله : اما عثمان بن عفان فتكثر الروايات الشعوبية التي تتكلم عن « سياسته الضعيفة المتخاذلة » ولكن الغريب اتهامه بالاثراء على حساب الدولة وهو الذي انفق ماله على الاسلام واهله . . . اما علي بن ابي طالب فهو متهم عند الشعوبيين بفقدان السياسة الواضحة متجاهلين مثله الاسلامية التي كانت تسيره [٢٧] .

اما الفتوحات الاسلامية فلم تكن عند الشعوبية « الا حروبا دموية انتهت بتسلط العرب على شعوب البلاد المفتوحة . . . وقد شاب هذا التسلط الكثير من الظلم والتعسف». في حين لم يشهد التاريخ فاتحين محررين اكثر مرونة وتسامحا من العرب المسلمين . وان معاهداتهم على سكان البلاد المفتوحة وخاصة بلاد فارس خير دليل على ذلك[٢٨] . وفي بداية للترشخي[٢٩] ان اهل بخارى أسلموا وارتدوا عن الاسلام اربع مرات وفي كل مرة يستولي قتيبة بن مسلم الباهلي على المدينة ويدخلها دون ان تقيل او يهجر

اهلها . فهل كان الساسانيون ام البيزنطيون يقفون هذا الموف الذي وقف قتيبة . . . بل هل وف الاستعمار والصهيونية موقفا مشابها لموقف قتيبة الباهلي العربي المسلم ؟

وحول انتقال السلطة في العصر الراشدي من خليفة الى اخر فقد حاولت الشعوبية ان تعطي صورة شاعت لدى عدد من المستشرقين وقبلها بعض مؤرخينا المحدثين وفحواها ان صحابة رسول الله (ص) كانوا تواقين للسلطة وتنازعوا عليها بعد وفاة الرسول (ص) . . . الا ان روايات عديدة اخرى تعطينا صورة ثانية مختلفة تماما عن مواقف ابي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة حيث لم يكن بينهم صراع بل ان غالبيتهم يحاول تجنبها لولا انها واجب وتكليف[٣٠] . وفي هذا المجال يقول احدهم :

« لولا حدود لله فرضت ، وفرائض لله حدت لكان الموت من الامارة نجاة . . . ولكن لله علينا اجابة الدعوة واظهار السنة »[٣١] .

ومسخت الشعوبية تاريخ العصر الاموي متهمة خلفاءه بالعنصرية وسياسة التمييز بين العرب وغير العرب في المجتمع الواحد . وفي اعتقادنا ان هذه الروايات مدسوسة مستندة الى روايات استثنائية لاتدل على سياسة عامة للدولة . ان خلفاء وولاة بني امية الاكفاء استطاعوا وبنجاح ان يحققوا درجة جيدة من التوازن سواء بين العرب انفسهم او بينهم وبين الموالي من جهة اخرى[٣٢] .

ثم لماذا لانعطي العصر الاموي حقه الطبيعي ؟؟ ألم

يكن عصر الفتوحات الاسلامية الكبرى في اندفاعاتها الجديدة بعد عصر الراشدين ؟ الم يكن عصر التعريب من دواوين ونقود الذي يعتبره بعض المؤرخين اعظم حدث ثقافي وسياسي واداري بعد جمع القرآن الكريم ؟ الم يكن العصر الذي شهد وضع اسس مايسمي بالعصر الذهبي فيما بعد ثقافيا وحضاريا . الا ان الشعوبيين قللوا من شأن هذه الاعمال وصوّروها بكونها مرتجلة ومتسرعة . فاتخذوا من سياسة التعريب وسيلة للطعن بالامويين لان هدفهم من هذه السياسة ـ كما يزعم الشعوبيون ـ قصر الوظائف على العرب وهذا تشويه متعمد لسياسة التعريب . ووقائع التاريخ تثبت ان اغلب موظفي الدواوين والمالية في العصر الاموي كانوا من الموالي . اما نظم الامويين المالية وخططهم الادارية فهي تدابير ظالمة ومتعسفة مع انها اعدل من نظم الساسانيين . ووصف الشعوبيون عمر بن عبدالعزيز وتدابيره المالية بانها « اراء خيالية حالمة من بنات افكار حاكم مثالي » مع انها اثبتت جدواها على الصعيد العملي . حاول الشعوبيون ـ كما يقول الدوري ـ ان يرسخوا صورة العرب في العصر الاموي على انهم بدو من الاعراب لاحضارة لهم ، مؤكدين مقابل ذلك اهمية الموالي في ترسيخ الثقافة في العصر الاموي . ولنا ان نتساءل مع الدوري . . . متى تعلم الموالي اللغة والشريعة حتى نبغوا ؟ وممن تعلموها ان كان العرب بدوا ؟ ان الموالي لم يدخلوا الميدان الحضاري الا بعد ان استعربوا فكرا ولغة وتعريبهم جاء بعد خلافة

عبدالملك بن مروان اي في حقبة متأخرة . فاذا علمنا ان اسس الثقافة العربية الاسلامية والفقه الاسلامي وضعت في العصر الاموي . فمن وضعها اذن ؟ ان المنطق يؤكد « ان جل حملة العلم في العصر الاموي من العرب »[٣٣]

وفي العصر العباسي لم يقف الرواة الشعوبيون عند حد وصف الدعوة العباسية بأنها قامت على اكتاف الفرس ، بل حرفوا وصية ابراهيم الامام العباسي الى الدعاة ، وزادوا عليها نصا يأمر فيه ابراهيم الامام انصاره « بقتل كل من يتكلم العربية » !! ولنا ان نتساءل كيف يأمر ابراهيم العباسي وهو عربي قبل العرب ؟ الا يخشى ان ينقلب عليه الدعاة فيقتلوه مبتدئين به باعتباره عربيا ؟

واستغل الشعوبيون الجناح المتطرف من الدعوة العباسية (الراوندية) وادخلوا العديد من العقائد الفارسية المجوسية القديمة مثل الحلول والتناسخ والتأويل الذي يؤكد الباطن لا الظاهر ، وان خصائص الامام العلم بالباطن . ولذلك فان « معرفة الامام هي الدين الحقيقي » ، وليس الدين فرائض وشرائع لابد من معرفتها !! ثم طوروا الفكرة فاشترطوا في الامامة بالعلم قبل الوراثة وبهذا يمكن ان يكون اماما من احاط بعلم الامام . . . ولم يكن هدف هؤلاء الا نقل الامامة من العرب الى الفرس . وقد تحقق لهم ذلك حين نادوا بلمامة ابي مسلم الخراساني وهذه هي الغاية والمرام .

اما دور ابي مسلم في الدعوة العباسية فقد بالغت

الـروايات الشعـوبية في ابـرازه مع العلم انـه لم يقـدم آلى خراسان الا بعد ان اختمرت الدعوة وانه كان واحـدا من قيادة مشتركة يرأسها نقيب النقباء سليمـان الخزاعي وهـو عربي .

الخليفة العباسي الاول ابو العباس عبدالله كان بنظر الشعوبيين سفاحا بمعنى السفاك للدماء لا كما لُقِّب هو نفسه السفاح بمعنى الكريم المعـطاء . وصوروه كـذلك بصـورة العـاهل الـذي لايملك من الاثـر شيئـا فهـو بـين الخـلال والخراساني وخالد البرمكي وكلهم من الفرس !!

اما المنصور فيصوره الشعوبيون بصورة « الميكافيلي » الذي يتبع اساليب الغدر والخداع كاملة للايقاع بخصومه ، وتغـاضـوا عن انجـازاتـه الكبيـرة التي جعلتـه « الخليفـة المؤسس » للدولـة العباسيـة . بل ادهى من ذلـك يعزو الشعوبيون بدء حركة الترجمة المبرمجة في عهد المنصور لا الى اسس موضوعية وخطط منتظمة بل الى سبب شخصي هو مرض الخليفة ومحاولته ايجاد الدواء لعلته !!

وعهد المهدي حيث تنفس النـاس الصعداء بسبب سياسته التوفيقية المرنة لم يكن في نظر الشعوبيين سوى بذخ وترف تعدى الحدود ولهذا نجد ايران متمردة ساخطة ضد بغـداد . اما الـدس الذي تعـرضت له شخصيـة هارون الـرشيد . .

وسياساته من قبل الرواة الشعوبيين فيدفعنا الى الاحتراز اثناء

الكتابة عن هذا الخليفة وابراز حقائب التاريخ من بين مئات الروايات المملوءة بالاخبار الموضوعة والمدسوسة [٣٤] .

ان الروايات الشعوبية تجعل من مسيرة هارون الرشيد بل الخلافة سيرة تافهة حيث تظهره على هامش الحياة وخارج دائرة السياسة والحرب في عهد والده المهدي ، انه لولا البرامكة وتشجيعهم ومواقفهم لفقد حقه الشرعي بالخلافة الى ابن اخيه ، واكثر من ذلك صورت الروايات الشعوبية شخصية الرشيد بكونها شخصية ضعيفة يسهل التأثير فيها وانه كان جاد المزاج تغلب عليه العواطف فهو بين الثورة العارمة والرقة المتناهية .

وهنا بيت القصيد حيث تشير هذه الروايات الشعوبية الى ان سقوط البرامكة او كما تسميها (نكبتهم) لم يكن بدافع معين وليس له تبرير معقول او منطقي وانما حدث نتيجة « فورة عاطفية » او هياج من جانب الرشيد حيث امر بقتل جعفر البرمكي وسجن اخيه واقامة يحيى البرمكي في منزله اقامة اجبارية . وتمضي الرواية الشعوببية الى القول بان الرشيد ندم على فعلته هذه اشد الندم فيما بعد ! !

وانتهزت روايات شعوبية اخرى هذه الفرصة فسارت على وفق مخططها بالنيل من الشرف العربي والقيم الاسلامية فحبكت «قصة العبّاسة اخت الرشيد» وزواجها الصوري من جعفر البرمكي واتصالها غير الشرعي به وانجابها سرا منه . وبهذا شفت الرواية الشعوبية غليلها ليس فقط من الرشيد بل من العائلة العباسية ومن شرف العروبة وقيم

الاسلام التي تدين بها الخلافة العباسية .[٣٥] .

ونحن لاندافع عن العباسة لانها عربية هاشمية مسلمة او لانها اميرة من البيت الحاكم ولكن الرواية الشعوبية نفسها متهافتة ولاتقف امام النقد او التحليل . بل ان مؤرخينا الرواد يذكرونها باستهزاء وسخرية ، ولعل ما ذكره مسرور الكبير خادم الرشيد ومن المقربين اليه يشير بوضوح الى اتهام الموالي الفرس في وضع هذه القصة حيث يقول :

« لا والله مالشيء من هذا اصل ولكنه من فعل موالينا وحسدهم » !!

ويندد ابن خلدون بهذه الاسطورة وينفيها اصلا حيث يقول :[٣٧]

« ولايعقل ان تقدم العباسة على ذلك وعصرها قريب عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين . فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب منها » !!

وتتخبط الرواية الشعوبية حين تشير مرة الي العباسة ومرة الى ميمونة الاخت الثانية للرشيد فهي لاتستقر على رأي واحد عن ايهما تزوج من جعفر البرمكي . وبذلك تفضح الشعوبية نفسها بنفسها في هذا التناقض .

وتعزو رواية شعوبية اخرى سقوط البرامكة الى ميلهم الى حرية الرأي والمناقشة في مجالسهم حيث يحضرها المثقفون واصحاب الرأي من كل فئة ويتجادلون

في امـور السياسـة والفقـه والدين والكـلام ، وان هـذه المناقشات لم تعجب الرشيد الذي ادرك خطرها . وهكذا تحـاول هذه الروايـة الشعوبيـة ان تجعل من البـرامكة مفكرين احرارا ذهبوا ضحية لتعسف السلطة العباسية .
ان سيـاسة هـارون الرشيد خـلال عهده الطويـل تحفل بالمظاهر السلبية والايجابية على حد سواء ورغم ادراكنا ان الرشيد ارتكب اخطاء واضحة في مجال السياسة والادارة الا انه وفي الوقت نفسه حقق انجازات مهمة واصلاحات يشار اليها في كتب التاريخ والتراجم وان ما قام به من بث روح جديدة للجهاد ضد الروم الى ضواحي القسطنطينية ودعمه للاسطول الاسلامي في البحر المتـوسط وانشـائه لصناعة السفن في موانىء البحر المتوسط ... كل ذلك حدث لاول مـرة في العصر العبـاسي بعـد ان اهمله الخلفـاء العبـاسيون الاوائـل بسبب انشغالهم بـالاضـطرابـات الداخلية . ولابد من ان نشـير كذلك الى جهـوده في نشر العـروبة والاسـلام في الاقاليم الوعـرة من بلاد فـارس وخاصة طبـرستان والديلم حيث لم تتـوطد فيها الادارة العربية الاسلامية منذ عهود الفتوحات الاولى وتشير رواية تاريخية الى انه اسلم على يديه ٥٠٠ من اهل طبرستان .
كما اهتم الرشيد باقاليم بلاد فارس الجنوبية وحاول مد نفوذ العروبة والاسلام اليها بعد ان كانت المجوسية ماتزال منتعشة فيها ، وشجع العديد من الوفود للقدوم اليه من هذه الاقاليم . كما وسعى الرشيد الى اضفاء سمعة عالمية

على الخلافة العباسية عن طريق اتصالاته الدبلوماسية بالدول الاخرى[٣٩] .

اما سقوط البرامكة فالروايات الموضوعية الصحيحة تثبت ان سقوطهم لم يكن وليد انفعال مفاجىء من قبل الرشيد بل كان تدبيرا مخططا له منذ عام ١٧٣ هـ ولدته احداث تراكمت على بعضها ولذلك فالجهشياري يورد اكثر من عشرة اسباب ادت الى سقوط البرامكة ويذكر قول الرشيد عنهم بانهم « استبدوا بالامور دوني وامضوها على غير رأي » . ان قول الرشيد هذا يجعلنا نشك في الرواية التاريخية الشائعة والتي تقول على لسان الرشيد الى يحيى البرامكي :

« يا ابت قد قلدتك امر الرعية .. فاحكم بما ترى واستعمل من شئت فاني غير ناظر معك في شيء »[٤٠] .

ان هذه الرواية مشكوك فيها وربما كانت ايضا من صنع اليد الشعوبية لتظهر استهتار الرشيد وعدم شعوره بالمسؤولية الملقاة على عاتقه كخليفة .

ولاتقف الرواية الشعوبية عند هذا الحد بل تمضي الى القول بان « نكبة البرامكة » كانت ايذانا بتدهور الدولة العباسية وبداية للعد التنازلي نحو السقوط . وكأن هذه الشخصيات الثلاث من آل برمك كانت تمسك بزمام الامور بكفاءة وقدرة عاليتين وليس هناك من يجاريها او يواليها !!

واخيرا وليس اخرا فقد صورت الرواية الشعوبية سقوط البرامكة وكأنه نكبة ومجزرة مأساوية والواقع ان

الرشيد لم يقتل الا جعفـرا البرمكي وامـر بسجن يحيى والفضـل اما بقيـة العائلة البـرمكية فلم يمسسهـا احد بسوء . واكثر من ذلك فان الرشيد ترك اعوان البـرامكة ومريديهم وشعراءهم يرثونهم بقصائد مطولة دون ان يقيد من مشاعرهم هذه او يمنعهم وقد شاعت في حينه قصيدة الرقاشي شاعر البرامكة :

على اللذات والدنيا جميعا   ودولة آل برمك السلام

وبهذا غدا البرامكة وسلطتهم « دولة » وليس مجرد « وزارة »!!

واستغلت الروايـات الشعوبيـة الصـراع الدامي الطويل بين الامين والمأمون الذي استمر خمس سنـوات وانتهى بمقتـل الامين وتسلم المـأمون سلطة الخـلافة . في حين تصدر هذه الروايات المأمون مسندا من قبل اخواله الفرس ورجاله امثال الفضل بن سهل الفارسي وطاهر بن الحسين الفارسي وانهم كانوا كتلة واحدة متراصة حوله في خراسان خاصة وبلاد فارس عامة ، تظهر هذه الروايات نفسهـا الامين في العـراق ومن ورائه الاقـاليم الغـربيـة والعربية ضعيفا عديم الانصار لايخلص له القادة الذين حوله ، يقضي اوقاته في اللهو والمجون !!

وهي بعد ذلك لاتسميه الخليفة بل « المخلوع » . اما انتصار المأمون فتعزوه هذه الروايات الى قدرات وزيره الفضل بن سهل الفارسي المجوسي (حيث كان حديث عهد

بالاسلام) والى قابليات القائد طاهر بن الحسين الفارسي .

والواقع ان ماحدث لم يحدث بسبب القابليات الخارقة للمأمون وقادته ولابد لنا من ان نحذر الدعايات القوية التي بثها انصار المأمون وهم الكتلة التي انتصرت في نهاية المطاف . وليس من شك ـ دون ان ندخل في التفاصيل ـ فان لكلا الاخوين نقاط قوة ونقاط ضعف . ولعل من ابرز نقاط الضعف لدى المأمون هو انسياقه وراء طموحات واهداف خاصته من الفرس الا انه ادرك ذلك ولو في وقت متأخر بعد ان كاد يفقد خلافته وتحوّل ملكه من العراق العربي الى خراسان الفارسية . نقول ان المأمون ادرك ذلك وتخلص من رأسي التآمر الفضل وطاهر[٤١] .

الحركة الشعوبية في نظر الشعوبيين !!

لابد من القول بدءا ان استمرار اعتماد الخلافة العباسية على العرب بالرغم من توسيع قاعدة اعتمادهم غير العرب واستمرار اتجاههم نحو الثقافة العربية والأرث العربي ادى الى رد فعل عنيف وعنصري لمسح التراث العربي والحط من دور العرب في التاريخ والحضارة واستبدال التراث العربي بتراث اعجمي وهذا ما يصطلح عليه « الشعوبية » كما اشرنا الى ذلك من قبل .

حين اسفر الشعوبيون عن وجوههم المعادية للعروبة تطور الصراع في العصر العباسي ليصبح صراعا عنيفا لتقرير مصائر الثقافة العربية الاسلامية بكل ما افرزته من قيم ومثل

واتجاهات . وقد تأصل النزاع بين التراثين العربي والفارسي حتى مس الجذور . فلم يكن جوهر الصراع مسألة سطحية عابرة تتناول الاساليب انما كان يتناول الوجهة الثقافية للمجتمع الجديد في العصر العباسي هل ستكون فارسية اعجمية او ستكون عربية اسلامية ؟؟

ومن البديهي ان يتبرقع الشعوبيون وان يختفوا تحت شعارات زائفة ولكنها براقة ليموهوا على الجماهير ويغروها ويكسبوها الى جانبهم وليخلطوا الامر على المثقفين السطحيين ، ولذلك ابتدعوا اصطلاح « اهل التسوية » اي المطالبين بالمساواة بين فئات المجتمع المختلفة من عرب وغيرهم . وانهم يمثلون « نضال الشعوب المظلومة ضد التسلط العربي والتمايز الاجتماعي والاقتصادي الذي تمارسه السلطة العباسية العربية » !!

بهذه الصورة « الانسانية » صور الشعوبيون حركتهم العنصرية التي تفضل عنصرا على اخر وتهاجم كل ما يملكه العنصر الاخر من ارث حضاري وقيم ثقافية واجتماعية وشوهوا ـ كما لاحظنا في الصفحات السابقة ـ تاريخ العرب وسير قادتهم .

لقد عرف العرب قمة التحدي فيما طرحته الشعوبية من مفاهيم ولكنهم جابهوا التحدي بكل اقتدار ونجحوا في افشال مخططات الشعوبيين وحافظوا على مظاهر تجربتهم الفريدة التي حققوها نتيجة تفاعل العروبة والاسلام . . . وحدة سياسية ووحدة روحية ووحدة ثقافية حضارية .

وسكتت اقلام الكتاب والمثقفين السطحيين الشعوبيين بعد ان دحضتها وسفهت حججها اقلام العرب ومواليهم .

حركة الزندقة في نظر الشعوبيين :

المعروف عن حركة الزندقة بأنها تلك الحركة الفكرية العقائدية التي ظهرت في اواخر العصر الاموي وفي العصر العباسي واستهدفت احياء الديانه المانوية المجوسية واحلالها محل العقيدة الاسلامية .

ولكن الشعوبيين تعمدوا اظهار الزندقة وكأنها « نمط من التفكير الحر » الذي دعا اليه مفكرون مستقلون وفلاسفة ومثقفـون في العصر العبـاسي والذين تعـرضوا الى مختلف انواع التعسف والتعذيب بسبب ارائهم الحرة !! . وهكذا يعمد الشعوبيون الى تشويه وقائع التاريخ العباسي ومظاهره السياسية والثقافية على حد سواء .

حول الحضارة العربية الاسلامية :

حققت الحضارة العربية الاسلامية انجازات مهمـة خلال العصر العباسي سواء أكان ذلك في مجـال النظم او مظاهر الحياة او العلوم ولذلك سمي ذلك العصر بالعصر الذهبي في تاريخ الحضارة او بعصر النهضة الحضارية .

ولم يستسغ الشعوبيون هذه الانجـازات الحضاريـة ولهذا عمدوا الى الدس والتشويه ولعل ابرز ماركزوا عليه في هذا المجال بـدعتين مـاتزال اثـارهما تتكـرر وتجتر في كتب

التاريخ الحضاري وهما :

اولا : ان العرب والمسلمين لم يلعبوا الا دور النقلة والحفظة للتراث الحضاري القديم اليوناني والهندي والفارسي . فقد نقلوه الى لغتهم وخزنوه في مكتباتهم حتى تسنى له ان يعود الى اوربا في عصر النهضة الاوربية !! ومعنى ذلك ان العرب والمسلمين لم يلعبوا دورا ايجابيا اصيلا ومتفاعلا مع الارث الحضاري القديم ومع علوم الاوائل ولم يطوروها ناهيك عن ابتداع مبتكرات وافكار جديدة في هذا المجال . من هذا كله اراد الشعوبيون ان يقرروا فكرة واحدة هي ان دور العرب والمسلمين لم يكن اصيلا في تاريخ الحضارة الانسانية .

حركة الزنج في نظر الشعوبيين

اما حركة الزنج التي حدثت في منطقة البطيحة بجنوبي العراق فقد صورتها الروايات الشعوبية بانها « ثورة العبيد ضد مايعانونه من استغلال وتعسف » وان قائدها محمد بن علي كان « بطلا ثوريا ذا مقدرة سياسية وعسكرية واضحة » .

ان رواة التاريخ من مختلف المشارب والأهواء اكدوا ان حركة الزنج كانت تفتقر الى الحد الادنى من التنظيم ووضوح الهدف والبرنامج . وان زعاماتها كانت انتهازية ارتكزت على عصبيات عرقية اوقبلية واتبعت سياسات محكومة بالمصلحة

الشخصية . . . ولعل هذا يحول حركة الزنج من « ثورة عبيد » الى مغامرة سياسية حاكتها مجموعة من الطموحين التواقين للسلطة ومونها المرابون اليهود والتجار .

حركة القرامطة من وجهة نظر شعوبية :

اظهر الشعوبيون القرامطة على انهم « ثوار اشتراكيون » يؤمنون بالدولة الاجتماعية وعدالة التوزيع . . . واغفلوا مبادئها الباطنية وعداتها للنظام السياسي والديني العربي الاسلامي السائد انذاك . كما اغفلوا اصولها التي ترتبط بحركة الزنج . والمكاسب المادية الكبيرة التي حققوها عن طريق التحالف مع البويهيين الفرس في السيطرة على تجارة الخليج والجزيرة العربية .

ولم يشر الشعوبيون من قريب او بعيد الى ان « اشتراكية » القرامطة حققت امتلاك اكثر من ٣ الاف عبد يسخرونهم في اعمال الزراعة في البحرين .

البابكية الخرمية والشعوبيون :

واظهر الشعوبيون مبادىء الخرميّة والحركات الفارسية المشابهة مثل اباحة الاموال والنساء كوسيلة من وسائل نشر « العدالة والسلام » . . فلما رأت البابكية ان القتال يقع بسبب النساء والاموال احلَّ النساء واباح الاموال !! . اما نزعة سفك الدماء لديهم فبررتها الشعوبية

«من اجل تخليص النفس من الشر ومزاج الظلمة»!! في حين اكد رواة التاريخ ان هدف البابكية كان العودة بالدين الى ما كان عليه ايام العجم والقضاء على العروبة والاسلام .

حول الامارات الفارسية :

وهللت الشعوبية لظهور الامارات الفارسية ابتداء من القرن الثالث الهجري في بلاد فارس واعتبرتها مرحلة نهوض سياسي وازدهار ثقافي فارسي . . . ذلك لان هذه الامارات كانت دون شك فرصة للتنفيس عن الحقد الفارسي الدفين ومناسبة لارضاء الادعاءات واشباع التطلعات الفارسية في العراق واجزاء اخرى من الوطن العربي .

ثانيا ـ وبعد ان فشل الشعوبيون في اثبات فرضيتهم الاولى عمدوا الى القول بأن غالبية علماء الحضارة العربية الاسلامية هم من المسلمين وليسوا من العرب . وهنا تعود الشعوبية الى هدفها الرئيس وهو ذم العرب والحط من دورهم في التاريخ .

على ان فرضيتهم الثانية لاتقل تهافتا عن فرضيتهم الاولى وقد دلل الجاحظ ـ وهو مولى ـ ان العروبة ليست بالعرق او الجنس بل بالفكر واللغة واللسان والانتماء الثقافي والولاء الحضاري .

ان الفرضيات العنصرية جاءت متهافتة ومضللة منذ

ان ظهرت وان الشعوب تداخل بعضها مع البعض الاخر ، ولهذا فان الذي يميز قوما عن قوم هو معايير اللغة والحضارة اولا وقبل كل شيء . ومن ذلك فالكثير من الفئات التي سكنت بلاد فارس في العصر الاسلامي الوسيط ليس بالضرورة فرسا بل ربما كانوا عربا او تركا او هنودا .

واكثر من ذلك فقد اثبتنا في مناسبات عديدة حين تكلمنا عن طبيعة الثورة العباسية ان العديد من العرب استوطنوا خراسان واقاليم اخرى من بلاد فارس وتلقبوا بالقاب تلك الاقاليم مثل الخراساني والطبرستاني والطوسي والمروزي والنيسابوري والبلخي والخ . . . . وهؤلاء كلهم كانوا عربا في النسب واللغة والثقافة والانتماء الحضاري والولاء السياسي فكيف نعدهم فرسا كما تزعم الشعوبية ؟ !!

لقد رد على هذه الفرضية الشعوبية العنصرية العديد من المؤرخين والاساتذة المحدثين وقد اورد الاستاذ الدكتور ناجي معروف اكثر من ٣٠٠ اسم من اسماء العلماء العرب الملقبين بالقاب تشير الى اقاليم فارسية والذين عدتهم الشعوبية من العلماء الفرس ، ثم اورد اكثر من هذا العدد في كل جزء من الجزأين التاليين للجزء الاول من كتابه « عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الاعجمية »[٤٣] . تصدى العلماء العرب والمسلمون لهذه الفرضية ودحضوها من اساسها ابتداء من الجاحظ وابن قتيبة والثعالبي والبيروني في

سلسلة طويلة عبر العصور .

تشمل الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الذي قال في معرض رده على الاعيب الشعوبية :

« الله احمد على ان جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وابى لي ان انفرد عن صميم انصارهم وانضوي الى لفيف الشعوبية او انحاز »[44] .

اما ياقوت الحموي (ت ٥٦٢٦) فقال يرد على النزعة العنصرية الفارسية للشعوبية « المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد والانسان من حيث يثبت لا من حيث ينبت »[45] .

حول الاحتلال المغولي لبغداد :[46]

وتظهر الروايات الشعوبية على حقيقتها في معرض سردها لاحداث الاحتلال المغولي البربري الوثني لبغداد حاضرة الخلافة العربية الاسلامية . ذلك لان المغول باجتياحهم العراق واحتلالهم عاصمة الخلافة قد ارضوا الحقد الفارسي الدفين وحققوا ادعاءات الفرس وخططهم من النيل من العراق معقل العروبة والاسلام .

ففي الوقت الذي تتهم الروايات الشعوبية الناصر لدين الله بالاتصال سرا بالمغول وحثهم على غزو بلاد خوارزمشاه الاسلامية وبهذا « فرق الجماعة الاسلامية » !! وهي روايات ليس لها سند تاريخي موثوق . . . فانها اي

الروايات الشعوبية ، تتغاضى بعد مدة ليست بالطويلة عن الدور الخياني الذي لعبه نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢ هـ ك ١٢٨٣ م) ومؤيد الدين ابن العلقمي (ت ٦٥٦ هـ /١٢٥٨) وتواطئهم مع المغول في سبيل اسقاط الخلافة العباسية .

فقد كان الطوسي مقربا من هولاكو وهو الذي حرضه على احتلال بغداد وتنبأ له بسقوط الخلافة وفي محاولة للقضاء على تردد هولاكو استطاع الطوسي ان يقنعه ، عن طريق الزيج والتنجيم ، بان سقوط بغداد سيكون على يديه . كما ان اتصالات الطوسي برجالات من الدولة العباسية وامراء الاطراف ورسائله الى العلماء محذرا اياهم بقوة دولة المغول التي يسميها « الدولة القاهرة الايلخانية » وعلى لزوم القبول بالمغول رغم وثنيتهم باعتبار « ان الكافر العادل افضل من المسلم الجائر » .

اما اتصالات ابن العلقمي بالطوسي وهولاكو قبل الغزو المغولي فتسكت الروايات الشعوبية عنها بل على العكس تشيد باخلاص ابن العلقمي للخليفة العباسي . اما تعاون ابن العلقمي مع الحكم المغولي في العراق واستمراره في تقلد منصب الوزارة فتفسره الروايات الشعوبية بانه « محاولة لانقاذ ما يمكن انقاذه من بطش المغول وتدميرهم » . وهذا الرأي مردود وغير وارد .

وعلى الرغم من كثرة الخلط في مسألة اتصال ابن العلقمي بالعدو والمتآمرين الفرس امثال الطوسي بحيث كادت الحادثة تخرج عن حقيقتها الموضوعية ، الا ان المتمعن

في موقف ابن العلقمي يجد دلائل اخرى على خيانته في روايات تاريخية عفوية وغير مباشرة وهنا تكمن اهمية هذه الروايات التاريخية .

ان هذه الروايات غير المباشرة تدين ابن العلقمي وتلقي ظلالا كثيفة من الشكوك على اخلاصه للدولة والخليفة (٤٧) . واولى هذه الروايات تلك التي تؤكد عدم ايصاله رسائل صاحب الموصل الى الخليفة تلك الرسائل التي تضمنت تحذير الخليفة من خطط المغول وعزمهم على اجتياح بغداد ، ومقترحات للتعاون المشترك بين الخلافة وامراء الاطراف لدرء الخطر المحدق . وقد اضطر صاحب الموصل بعد علمه بعدم وصول رسائله الى اتباع وسائل اخرى لايصال صوته الى الخليفة . وثاني هذه الروايات تلك التي تشير الى اصداره اوامر اثناء حصار بغداد ينتج بعض السدود مما ادى الى اغراق جيش الخلافة وبعثرة ماتبقى منه . وثالث هذه الروايات تلك التي تشير الى خداعه للخليفة باقناعه له بضرورة مقابلة هولاكو لانه الطريق الوحيد للنجاة والسلامة في حين كانت هناك خطط قد اعدت لهروب الخليفة الى البصرة عن طريق دجلة حيث يتمركز هناك ويجمع الانصار ويعاود الهجوم على المغول . وقد قبل الخليفة رأي وزيره ابن العلقمي فلقي مصرعه .

فالشعوبية اذن تجد اكثر من وسيلة وعذر لتبرير تعاون ابن العلقمي مع المغول . . . ولكنها في الوقت نفسه تختلق الروايات عن اتصال الناصر لدين الله بالمغول وتتهمه بالخيانة !!

الخاتمة

هذه اشارات عابرة وخطوط عامة عريضة عن الدس الشعوبي في احداث التاريخ العربي الاسلامي وحضارته . ويلاحظ ان الشعوبية حاولت ان تشكك في كل ظاهرة سياسية او حضارية ايجابية وان تبرز الظواهر السلبية وتؤكدها او تختلق ظواهر سلبية لاصحة لها . ورغم ان الشعوبية لم تفلح في عصرها وفي مرحلة استفحالها في العصر العباسي حيث ردتها الى نحورها جهود مجموعة قيمة من المفكرين والمثقفين العرب وغير العرب على السواء . . . فمما يؤسف له ان العديد من روايات الشعوبية الشاذة قد اعتمدت من قبل بعض المستشرقين الاوربيين الذين قبلوها على علاتها دون تمحيص او استقصاء وبنوا عليها احكاما وتفسيرات في التاريخ العربي الاسلامي .

وقد غدت هذه الصورة الشعوبية ـ الاستشراقية حقائق مسلما بها لا لكونها تعتمد على التحليل الموضوعي للاحداث بل لكثرة تداولها وتكرارها حتى من قبل بعض مؤرخينا المحدثين .

ان الخطر الذي ولدته وتولده الكتابات الشعوبية القديمة والاستشراقية الحديثة لايكمن فقط في اعطاء صورة غير صحيحة لتاريخنا ، بل فيما تبثه من شك واستهتار بالقيم التراثية والاجتماعية لدى الناشئة خاصة والامة عامة . وهنا يأتي دورنا بوصفنا مؤرخين عربا وعراقيين في عملية اعادة كتابة التاريخ . . . بل لابد من ان نكون رأس الحربة في هذه

العملية الحساسة في مرحلتنا الحاضرة ، مرحلة النهوض ، التي تسعى الى غربلة التراث وازالة التشويه والتشكيك وتقديم صورة حقيقية ، قدر الامكان ، لتاريخنا نابعة من تفسيرنا . ان قراءتنا للتاريخ والتراث يجب ان تكون قراءة جديدة تهدف الى تعريفنا باصالتنا وروح شخصيتنا القومية وبهذا نستطيع خلق الشخصية الايجابية ذات الأثر الفعال في مجرى التقدم والنهوض الحضاري للامة . والمقصود « بالشخصية الايجابية » هي الشخصية التي يقوم على الولاء للوطن ، والاخلاص لاهداف الامة وقيمها ومثلها ، والعلم بطرق تحقيق تلك الاهداف ، والعزيمة التي تدفع المواطن وتشحذ همه للاسهام في هذا التحقيق .

الهوامش

(١) السخاوي . الاعلان بالتوبيخ ، لذم اهل التاريخ (ضمن كتاب روزنتال علم التاريخ) .

(٢) عبدالواسع اليماني . تاريخ اليمن . القاهرة ١٣٤٦ هـ .

(٣) ابن خلدون . المقدمة . القاهرة . ١٩٥٧ .

(٤) السيد عبدالعزيز سالم . التاريخ والمؤرخون العرب . القاهرة .١٩٦٧ .

(٥) فاروق عمر . طبيعة الدعوة العباسية . بيروت . ١٩٧٠ .

(٦) صالح العلي . لماذا ندرس التاريخ ؟ محاضرات الموسم الثقافي (مجلة الاستاذ) بغداد ١٩٦٩ .

(٧) كينز . الحيرة وعلاقتها مع الجزيرة العربية . ترجمة د . خالد العلي . مجلة بين النهرين العدد (٧) . ١٩٧٤ .

(٨) محمد عمارة . مخبر اليقظة القومية . القاهرة ١٩٧٥ . ص٢٩ .

(٩) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج١ ص٢١٨٧ .

(١٠) محمد عمارة ، الملامح القومية للاسلام ، مجلة قضايا عربية ، العدد ٧ ، ١٩٧٤ .

(١١) البلاذري ، انساب الاشراف ، ورقة ٧٨٨ ب ـ ٧٨٩ ا .

(١٢) الاصطخري ، مسالك الممالك ، ص١٤١ ـ عبدالرحمن العاني ، عمان في العصور الاسلامية الاولى ، اطروحة دكتوراه بغداد ١٩٧٥ .

(١٣) الازكوي ، كشف الغمة ، ورقة ٢٦ ب ـ ٢٨ ا .

(١٤) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج١ بيروت ١٩٧٠ .

(١٥) عبدالحليم منتصر ، تاريخ العلم ، القاهرة ، ١٩٦٦ ص١٣٤ فما بعد .

(١٦) الفارابي ، الفصول المدنيّة ، تحقيق دنلوب ، ١٩٦١ كمبردج .

(١٧) ابن حزم المحلى (باب الزكاة) .

(١٨) فتحي عثمان ، اراء تقدمية من تراث الفكر الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٢ .

(١٩) ابن حزم ، المحلى .

(٢٠) ابن حزم ، الاحكام .

(٢١) راجع فتحي عثمان ، المصدر السابق ، ص٣٥ ـ ٤٦ .

(٢٢) الدوري مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بغداد ١٩٤٩ .

(٢٣) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، ص٤٤ .

(٢٤) فاروق عمر ، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين .

(٢٥) راجع : الدوري ، المصدر السابق .

(٢٦) المصدر السابق .

(٢٧) حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، طبعة ١٩٦٩ .

(٢٨) الترشخي ، تاريخ بخارى . الترجمة الانكليزية كمبردج . ١٩٥٤ .

(٢٩) فاروق عمر ، النظم الاسلامية ، الشارقة ، ١٩٨٣، ص١٨ ـ ١٩ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص١٩ .

(٣١) فاروق عمر ، المختار بن ابي عبيدة الثقفي ، افاق عربية ، ١٩٧٧ .

(٣٢) الدوري ، المصدر السابق .

(٣٣) الطبري ، تاريخ ج١٠ ص١١٣ فما بعد . طبعة القاهرة .

(٣٤) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج٣ ص١٧ فما بعد ، عمان ١٩٨٢

(٣٥) الجهشياري ، الوزراء .. ص٢٥٤ .

(٣٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ج١ ص١٥ .

(٣٧) ابن كثير ، البداية ج١ ص٢١٥ .

(٣٨) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ج٣ ص١٢ ـ ١٣ .

(٣٩) الجهشياري ، ص١٧٧ .

(٤٠) فاروق عمر ، الفضل سهل وزير المامون ، مجلة كلية الاداب ، ١٩٨١

(٤١) د . ياسين خليل ، التراث العلمي العربي ، ج١ ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٧٨ .

(٤٢) د . ناجي معروف ، عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الاعجمية ج١ ، ١٩٧٤ بغداد .

(٤٣) المصدر السابق ص٢٥ .

(٤٤) المصدر السابق ص٣٢ .

(٤٥) فاروق عمر ، الخلافة العباسية في عصورها المتاخرة ، الشارقة ، ١٩٨٣ .

(٤٦) القزاز ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ، النجف ، ١٩٧١ .